ايڤان كان على وشك أن يموت وأن من الأفضل مساندة فلاديمير أندرييڤتش . ولكن هذا الموقف الحكيم أخرجه من دائرة الاعتراف بالجميل والولاء البسيط لأنه كان إهانة فادحة لم يقل أحد إنه طلب عنها الصفح والغفران . وقد انتظر ايڤان وراقب واستمر في الإفادة من خدماته ولكن الرباط الشخصي بينهما كان قد انقطع . وفيما عدا ذلك يقال إن أرداتشيف نفسه كان طيباً وطالما وزع الصدقات عن سعة وسخاء ، وكان يحتفظ في منزله بعشرة ممن أصابهم الجذام ويقوم على تغسيلهم بيديه .

بعد أن تخلص القيصر من سيلڤستر وأرداتشيف فكر القيصر بأنه يحسن صنعاً لو طلب النبلاء إلى قسم ولاء جديد . وكان هؤلاء قد سروا من النكبة التي لحقت بحديث النعمة ولم يصلوا إلى أعماق طباع القيصر ولم يفهموا أنه كان في بدء سلسلة من الأعمال الانتقامية التي كان قد صبر عليها طويلاً حتى الآن . فهو سينتقم من كل أولئك الذين وقفوا ضد القيصرة في ١٥٥٣ ومن خلفاء أولئك الذين أساؤوا إليه وهو في طفولته .

لقد انصب غضب القيصر في بادىء الأمر على خاصة الكسي أرداتشيف فقام فجأة باعتقال أخيه دانيال الذي كان جندياً باسلاً وبطلا في عدة حملات وأمر بإعدامه على الفور دون أية جريرة أو اتهام وحتى بدون أن ترد كلمة الخيانة على أي لسان فإرادة القيصر ليست بحاجة لأن يكون لها أسباب . وهكذا قتل دانيال أرداتشيف وقتل معه ابنه ذو الإثني عشر عاماً من العمر ولا يعرف أحد كيف قتلا . ونحن إنما نلحظ مافي هذا العمل من وحشية بمقارنته بلطف معشر القيصر خلال سنواته الثلاث عشرة السابقة . فالقيصر الواسع التقى الآخذ بالنصيحة المعتدل في حكمه يرتكب مثل هذه الجريمة العنيفة المثيرة . وكان يعرف انها جريمة او بالأحرى « جريمة فظيعة » . وهكذا من أجل أن ينتقم لنفسه من الإله ارتكب هذه الخطيئة الدنيئة وعيناه بصيرتان مفتوحتان لقد كان إيڤان أكثر ذكاء من رئيس الكنيسة ماكاري الذي كان يعتقد